

الباب الثاني والعشرون

في عدد الجنات وأنها نوعان : جنتان من ذهب، وجنتان من فضة

الجنة : اسم شامل لجميع ما حوته من البساتين والمسكن والقصور وهي جنات كثيرة جداً ، كما روى البخاري في « صحيحه » عن أنس بن مالك : أن أم الربيع بنت البراء : وهي أم حارثة بن سراقة أتت رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ألا تحدثني عن حارثة ؟ وكان قُتِلَ يوم بدرٍ أصابه سهمٌ غَرَبٌ . فإن كان في الجنة صبرْتُ ، وإن كان غير ذلك اجتهدتُ عليه في البكاء ، قال : « يا أم حارثة ، إنها جنتان في الجنة ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى » (١) .

وفي « الصحيحين » من حديث أبي موسى الأشعري ، عن رسول الله ﷺ قال : « جنتان من ذهب آتيتهما ، وحليتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آتيتهما وحليتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » (٢) . وقد قال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٩) في الجهاد : باب (١٤) من أتاه سهم غرب فقتله .

سَهْمٌ غَرَبٌ : أي لا يعرف راميهِ ، ولا من أين أتى ، أو جاء على غير قصد .

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٧٨) (٤٨٨٠) في التفسير : باب (١) و(٢) ﴿ وَمِنْ ذُنُوبِهِمَا جَنَّاتٌ ﴾ ، و﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ ، ومسلم (١٨٠) في الإيمان : باب (٨٠) إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى .

ولفظه عندهما : « جنتان من فضة . آتيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب . آتيتهما وما فيهما . . . »

قال الإمام النووي : قال العلماء : كان النبي ﷺ يخاطب العرب بما يفهمونه ، ويقرب الكلام إلى أفهامهم ، ويستعمل الاستعارة وغيرها من أنواع المجاز ليقرب تناولها ، فعبر ﷺ عن زوال المانع ، ورفع عن الأبصار بإزالة الرداء .

جَتَانٍ ﴿ [الرحمن : ٤٦] فذكرهما ثم قال : ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَتَانٍ ﴾ [الرحمن : ٦٢] فهذه أربع ، وقد اختلف في قوله : ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا ﴾ هل المراد به أنهما فوقهما ، أو تحتهما على قولين :

فقال طائفة : من دونهما أي ، أقرب منهما إلى العرش ، فيكونان فوقهما .

وقالت طائفة : بل معنى من دونهما : تحتهما . قالوا : وهذا المنقول في لغة العرب ، إذا قالوا : هذا دون هذا ، أي دونه في المنزلة . كما قال بعضهم لمن بالغ في مدحه : أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك : وفي « الصحاح » دون : نقيض فوق ، وهو تقصير عن الغاية ، ثم قال : ويقال : هذا دون هذا أي أقرب منه ، والسياق يدل على تفضيل الجنتين الأولين من عشرة أوجه :

أحدهما : قوله : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ [الرحمن : ٤٨] وفيه قولان : أحدهما : أنه جمع فَنَنَ ، وهو الغصن . والثاني : أنه جمع فَنٍّ ، وهو الصنف : أي ذواتا أصناف شتى من الفواكه وغيرها ، ولم يذكر ذلك في اللتين بعدهما .

الثاني : قوله : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ [الرحمن : ٥٠] وفي الآخرين : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ [الرحمن : ٦٦] والنضَّاخة : هي الفؤارة ، والجارية : السارحة ، وهي أحسن من الفؤارة ، فإنها تضمن الفوران والجريان .

الثالث : أنه قال : ﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهِةٍ زَوْجَانِ ﴾ [الرحمن : ٥٢] ، وفي الآخرين : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهِةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن : ٦٨] ، ولا ريب أن وصف الأولين أكمل ، واختلف في هذين الزوجين بعد الاتفاق على أنهما صنفان . فقالت طائفة : الزوجان : الرطب واليابس الذي لا يقصر في فضله وجودته عن الرطب ، وهو متمتع به كما يتمتع باليابس ، وفيه نظر لا يخفى . وقالت طائفة : الزوجان صنف معروف ، وصنف من شكله غريب . وقالت طائفة : نوعان ولم تزد . والظاهر والله أعلم : أنه الحلو والحامض ، والأبيض

والأحمر، وذلك لأن اختلاف أصناف الفاكهة أعجب وأشهى ، وألذ للعين والقم .

الرابع : أنه قال : ﴿ مُتَكْتَبِينَ عَلَى فُرْشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾^(١) [الرحمن : ٥٤] ، وهذا تنبيه عن فضل الظهائر وخطرها، وفي الأخيرين قال : ﴿ مُتَكْتَبِينَ عَلَى رُفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾^(٢) [الرحمن : ٧٦] وفسر الرفرف : بالمحابس^(٣) والبسط، وفسر : بالفرش، وفسر : بالمحابس فوقها . وعلى كل قول فلم يصفه بما وصف به فرش الجنتين الأولين .

الخامس : أنه قال : ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ [الرحمن : ٥٤] أي قريب سهل يتناولونه كيف شاؤوا، ولم يذكر ذلك في الأخيرين .

السادس : أنه قال : ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾^(٤) [الرحمن : ٥٦] أي قد قصرن طرفهن على أزواجهن، فلا يردن غيرهم لرضاهن بهم، ومحبتهم لهم، وذلك يتضمن قصرهن لطرف أزواجهن عليهن، فلا يدعهم حسنهن أن ينظروا إلى غيرهن، وقال في الأخيرين : ﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾^(٥) [الرحمن : ٧٢] ، ومن قصرت طرفها على زوجها باختيارها أكمل ممن قصرت بغيرها .

السابع : أنه وصفهن بشبه الياقوت والمرجان في صفاء اللون ، وإشراقه وحسنه ، ولم يذكر ذلك في التي بعدها .

الثامن : أنه سبحانه قال في الجنتين الأوليين : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ

(١) الإستبرق : الحرير الغليظ السميك .

(٢) الرفرف: جمع رفرقة ، أي بسط ووسائد. والعبقري : البسط الحسنه ، قال في القاموس : العبقرى : الكامل من كل شيء ، والسيد والذي ليس فوقه شيء ، وضرب من البسط .

(٣) كذا في «القاموس» واحدها محبس كمنبر: ثوب يحبس به الفراش.

(٤) الطرف : العين .

(٥) حور : شديديات سواد العيون وبياضها ، جمع حوراء ، وهذا وصف لعيونهن بالجمال ، مقصورات : مستورات. الخيام : جمع خيمة . وهي البيت يتخذ من النسيج ، وهي في الآخرة دُرٌّ محجوف .

إلا الإحسان ﴿ [الرحمن : ٦٠] وهذا يقتضي أن أصحابهما من أهل الإحسان المطلق الكامل، فكان جزاؤهم بإحسان كامل .

التاسع : أنه بدأ بوصف الجنتين الأوليين ، وجعلهما جزاءً لمن خاف مقامه ، وهذا يدل على أنهما أعلى جزاء الخائف لمقامه ، فرتب الجزاء المذكور على الخوف ترتيب المسبب على سببه ، ولما كان الخائفون نوعين : مقربين وأصحاب يمين ، ذكر جنتي المقربين ، ثم ذكر جنتي أصحاب اليمين .

العاشر : أنه قال : ﴿ وَمَنْ دُونَهُمَا جَنَّاتٍ ﴾ [الرحمن : ٦٢] والسياق يدل على أنه نقيض فوق . كما قال الجوهري ، فإن قيل : فكيف انقسمت هذه الجنان الأربع على من خاف مقام ربه ؟ قيل : لما كان الخائفون نوعين كما ذكرنا ، كان للمقربين منهم الجنتان العاليتان ، ولأصحاب اليمين الجنتان اللتان دونهما ، فإن قيل : فهل الجنتان لمجموع الخائفين يشتركون فيهما ، أم لكل واحد جنتان وهما البستانان ؟ قيل : هذا فيه قولان للمفسرين . ورجح القول الثاني بوجهين : أحدهما : من جهة النقل . والثاني : من جهة المعنى ، فأما الذي من جهة النقل فإن أصحاب هذا القول رووا عن رسول الله ﷺ أنه قال : «هما بستانان في رياض الجنة» وأما الذي من جهة المعنى فإن إحدى الجنتين جزاء أداء الأوامر ، والثانية : جزاء اجتناب المحارم .

فإن قيل : فكيف قال في ذكر النساء ﴿ فِيهِنَّ ﴾ في الموضوعين ، ولما ذكر غيرهن قال ﴿ فِيهِمَا ﴾ ؟

قيل : لما ذكر الفرش قال بعدها : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتُ حِسَانٍ ﴾ [الرحمن : ٧٠] ثم أعاده في الجنتين الأخريين بهذا اللفظ ، ليتشاكل اللفظ والمعنى . والله أعلم .